المعلّقات: قصائد من ذهب

نقرأ في هذا الدرس منتخبات من الشعر العربي القديم، نستعيد فيها جمالَ الشعر العربي، وقوّةَ كلماته، وعذوبةَ موسيقاه. ولقد أبدع العرب في شعرهم منذ أقدم أزمنتهم، فكأن الشعرَ قد وُلِد معَ ميلاد الإنسان العربي، ونما ونضج مع نموّه ونُضجه.

لعل إتقانَ اللغة العربية لا ينفصل عن التمكّن من قراءة الشعر القديم، لأنه الكَنزُ العربيّ الخالد، بمفرداته، وأصواته، وتراكيبه، وأساليبه، وقبل هذا بمعانيه وأخْيلته. وقديماً قيل: الشعرُ ديوانُ العرب، لأنه سجلُّ حضارتهم ووجدانهم، ومرآةُ حياتهم وتطلّعاتهم.

* * *

قال امرؤ القيس بن حُجْر في معلّقته الشهيرة:

قفا نبــك من ذكرى حبيب ومنزلِ بسقــط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمــقراة لم يعف رسمهــا لما نسجتهــا من جنوب وشمألِ

* * *

كأني غداة البين يوم تحمــلوا لدى سمُرات الحي ناقــفُ حنظــلِ
وقــوفاً بها صحْبي عليّ مطيُّــهم يقولــون: لا تهلــكْ أســى وتجمّلِ

* * *

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهمــــــم ليبتلي
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ

* * *

وقد أغتدي والطير في وكناتــها بمنجــرد قيــد الأوابد هيــــكل
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ مــــعاً كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علِ

* * *

إنه صوت امرئ القيس، شاعر العربية الأول، ما زال ينادي أصحابه ليشاركوه في بكائه على أطلال أحبائه. ويطوّف بين موضوعات متعددة، متفنّناً في أساليب الانتقال والتخلص من موضوع إلى موضوع؛ يبدأ بالطلل أو البكاء على الديار، ثم ينتقل إلى تصوير رحلة الظعائن ورحيل الأحبة الذي أبكاه، ويصوّر الليل كما لم يصوّرْه شاعر بطولِه وقسوتِه ونجومِه الثابتة، كما يرسم صورة بديعة للحصان في سرعة حركته وبديع هيئته.

تعريف المعلّقات:

أما المعلّقات التي تنتمي إليها قصيدة امرئ القيس، فتسمية شائعة مرتبطة بشعرنا العربي القديم، وهي تدل على مجموعة من القصائد الجاهلية التي قالها شعراءُ عاشوا في عصر ما قبل الإسلام. وتمتاز تلك القصائد الخالدة بطولها، وجودتها، وقوّتها، ومعانيها. أما عددها فهي سبع معلقات أو تسع أو عشر.

سبب التسمية:

وقيل في سبب تسمية المعلّقات بهذا الاسم أقوالٌ كثيرة؛ فقيل: لأنها كُتبت بماء الذهب، وعُلّقت على جدران الكعبة أو في خزائن بعض الملوك؛ تقديراً لمكانتها، وإجلالاً لإبداعها. وقيل: بل سميت تشبيهاً لها بالقلائد والعقود التي تعلّقها النساء للزينة وإظهار المكانة، فشبّهت بالقلائد؛ للدلالة على جودتها وتميزها عن غيرها. فهي بهذا المعنى: قلائد الشعر العربي وزينته الباقية. وقيل: سُمّيت بالمعلّقات؛ لأنها تعْلق في الذهن، فيحفظها الناس ويرددونها؛ لجمالها، وقوّتها، وفرادتها.

كأن تسميتها –مهما تنوعت– تدل على مكانتها في نفوس العرب، ودعوتهم إلى حفظها وتداولها والاعتزاز بها. وقد احتفل بها العرب على امتداد العصور، فشرحها الشراح، وقرأها النقاد، وعارضها الشعراء، وحفظها التلاميذ، وتسابقوا في العناية بها، وإظهار القدرة من خلالها، وما تزال حتى اليوم

تلقى اهتمام متذوّقي الشعر، يجدون فيها قوّة اللغة، والخيال المجنّح، وجمال الصورة، مثلما يجدون الحكمة الإنسانية، والمعنى البكْر الذي لم يسبق إليه شعراء الجاهلية.

مطالع المعلقات:

"المطْلع" هو البيت الأول الذي تفتتح به القصيدة العربية. وكان الشعراء العرب يعتنون منذ القديم بافتتاح قصائدهم، فقد كانت القصائد تُلقى شفاهاً، في أسواق العرب ومواسم اجتماعهم، ولا بدّ أن يجتذب الشاعر اهتمام الجمهور لينتبهوا إليه، والمطلع هو أول الغيث في أية قصيدة، فإن كان قويّاً جذّاباً شكّل أول شروط نجاحها ووصولها إلى جمهورها.

وكثيراً ما تسمى القصيدة ببيتها الأول، أو مطلعها الذي يشكّل شرارة انطلاقها. وطوّر الشعراءُ تقاليدَ فنّيةً لافتتاح قصائدهم، بعدما لاحظوا أن الوعي العام قد استحسنها ومال إليه. ولعل افتتاح القصيدة بالمقدمة الطلية التي يبكي فيها الشاعر على الأطلال أو بقايا الديار من أبرز تلك المقدمات والبدايات. فأكثر الشعراء يفتتحون قصائدهم المطوّلة بالبكاء على الأطلال.

أما مطالع المعلّقات أي أبياتها الأولى، فأبيات جميلة تظهر اهتمام الشعراء الاوائل بطرق افتتاح قصائدهم، كما تظهر جانباً من تقاليد الشعر العربي وخصائصه الكبرى. ويحسن بك وبنا جميعاً حفظُ مطالع المعلقات، والتمكّنُ من قراءتها، والاستمتاعُ بإنشادها، بوصفها أشهرَ قصائدِ الشعر العربي في العصر الجاهلي (قبل الإسلام)، أول العصور التي نعرفها من حياة العرب الأقدمين.

مطالع المعلّقات:

امرؤ القيس بن حُجْر:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْط اللّوى بين الدَّخولِ فحَوْمَلِ

زهير بن أبي سلمى:

أمن أم أوفى دمنةٌ لم تكلّم بحَوْمانةِ الدّراجِ فالمتثلّمِ

طرفة بن العبد:

لخولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليد

عنترة بن شداد العبسي:

يا دار عبلة بالجواء تكلّمي وعِمِي صباحاً دارَ عبلة واسْلمي

عمرو بن كلثوم التغلبي:

ألا هبّي بصحنك فاصبَحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

لبيد بن ربيعة العامري:

عفت الديار محلّها فمقامُها بمنى تأبّد غولها فرجامها

الحارث بن حلّزة اليشكري:

آذنتنا ببينها أسماء ربّ ثاوٍ يملّ منه الثّواء

عبيد بن الأبرص الأسدي:

أقفر من أهله ملْحوبُ فالقطّبيات فالذَّنوب

الأعشى:

ودّع هريرة إن الركبَ مرتحلُ وهل تطيق وداعاً أيّها الرجل؟!

النابغة الذبياني:

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند أقْوَتْ، وطال عليها سالفُ الأمدِ

* * *

هذه إذن مطالع القصائد المشهورات، قد تجد بعضَ لفظِها غريباً، ولكنّها في كل حال عربية اللفظ، والتركيب، والموسيقى، فيها ما في لغتنا اليوم من مفردات وإيقاعات، وإذا أنشدناها مراتٍ ألفناها، ووجدناها قريبةً منا، تذكّرنا بمنابع شعرنا، ونستعيد معها اللغةَ البكرَ التي لم يستهلكْها الاستعمال. تبعد عنا المعلقات أكثرَ من ألفٍ وخمسمائةِ سنة، ومع ذلك نحن قادرون على قراءتها وفهمها بقليل أو كثير من التأمّل والتأنّي، إنها أحد كنوز اللغة العربية في ينابيعها الأولى.

أسماء الأماكن الجغرافية:

أكثر الغريب في مطالع المعلقات يتمثّل في أسماء الأماكن الجغرافية، وهي تبدو غريبة لأنها لم تعد مستعملة، فهي إذن مجرد أسماء، وليس فيها غرابةٌ إذا عرفنا دلالتها. ومن هذه الأماكن التي جاء ذكرها في مطالع المعلقات:

سقط اللوى

الدَّخول

حومل

حومانة الدراج

المتثلّم

برقة ثهمد

الجِواء

العلياء

السند

ملحوب

فهذه كلها أسماءُ أماكنَ عرفوها، وعهدوها، وتجوّلوا فيها زماناً طويلاً، ولما مرّوا بها، ووجدوها خاليةً، بكَوها بكاءً صادقاً مرّاً، وتذكّروا عهد أنيسها.

ألفاظ الطلل:

هناك عدة ألفاظ استعملها الشعراء للدلالة على الديار الخالية المقفرة، وأهم هذه الكلماتِ الكلماتُ التالية:

- الطلل: مفرد، وجمعه: أطلال وطلول.
- الرسْم: مفرد، وجمعه رسوم.
- الدِّمْنة: مفرد، وجمعها: دِمَن.
- الدار: مفرد، وجمعها: ديار.
- المنزل: مفرد، وجمعه: منازل.

استعمل الشعراء القدامى هذه الأسماء بصيغة المفرد، وصيغة الجمع، وهي من الألفاظ المتكررة في افتتاح القصائد العربية القديمة وفي مشاهد تصوير الأطلال، والبكاء عليها.

إنها ألفاظٌ تدلّ على المكان الذي يبكون فراغَه وخلوَّه من أهله. ولو تفهّمناها لهان علينا أمرُ فهم المعلقات، وفهمنا شيئا من تعلّق الإنسان العربي بمكانه ووطنه، حتى لو كان مكاناً مقفراً خالياً. فقيمة المكان تتحدد بما فيه من ذكريات ولمسات إنسانية، وليس بما فيه من أطيانٍ وموجودات.

وهكذا حوّل الشاعر العربي بثروته اللغوية المكان الفقير من حيث الطبيعة والمكوّنات، إلى مكان شديد الغنى، كل حبّة رمل فيه لا تكاد تقدّر بثمن.

تدريبات القراءة والاستيعاب

تدريب (1):

احفظ خمسة أبيات من معلقة امرئ القيس، أو من مطالع المعلّقات، وأنشدها أمام زملائك ومدرّسك، ملتزماً في أدائها بما يلي:

- الأداء اللغوي واللفظي السليم، مع الانتباه للحركات وتقسيم الجمل.
- الأداء التعبيري واستعمال الإيماءات وحركات الجسد المعبّرة بحيث تحسن التعبير عن المعنى.

تدريب (2):

اختر الإجابة الصحيحة مما يأتي:

(1): القصائد المسماة بـ "المعلّقات":

أ. قصائد لامرئ القيس في الجاهلية

ب. قصائد لشعراء محدّدين من العصر الجاهلي

ج. قصائد لا تقتصر على الجاهلية وإنما هي من عصور مختلفة

د. قصائد من العصر العباسي للمتنبي

(2): تسمية مجموعة من القصائد القديمة بالمعلقات تدلّ على:

أ. أن العرب خبأوا تلك القصائد ولم يتداولوها.

ب. أن العرب علّقوا تلك القصائد في أعناقهم.

ج. أن العرب قدّروا قيمتها وأبرزوها واهتموا بها.

د. أنها قصائد صعبة لا تعلق في الأذهان والعقول.

(3): أكثر موضوع يفتتح به شعراء المعلقات قصائدهم هو:

أ. البكاء على الأطلال

ب. المقدمة الخمرية

ج. بكاء الشباب وذكر الزمان

د. الفخر القبلي

(4): المصطلح الأنسب لتسمية البيت الأول من القصيدة العربية القديمة هو:

أ. المفتاح

ب. القفل

ج. الباب

د. المطلع

(5): الخطاب في قول امرئ القيس "قفا نبك...":

أ. لصاحب واحد

ب. لصاحبين اثنين

ج. لامرأة واحدة يحبّها

د. لمجموعة من الأصحاب

(6): المقصود بالأطلال كما يفهم من الشعر الجاهلي ومطالع المعلّقات:

أ. الديار العامرة أثناء إقامة أهلها فيها

ب. أغنية شعرية تغنيها السيدة أم كلثوم

ج. بقايا الديار الخالية بعد رحيل سكانها

د. الديار البارزة المطلّة المبنية من الحجارة

(7): في قول عنترة: وعِمِي صباحاً دارَ عبلة واسلمي

أ. يحيّي عنترة ديار محبوبته عبلة، بتحية الصباح.

ب. يشتم الشاعر ديار عبلة ويدعو عليها بالعمى.

ج. يتحدّث إلى عمّه الذي رفض تزويجه من عبلة.

د. ينتقد الشاعر عبلة لأنها لا تحيّيه في الصباح.

(8): في قول طرفة يصف ديار محبوبته وأطلالها: تلوحُ كباقي الوشْم في ظاهر اليد

أ.اختفت ملامح الدار تماما ولم يبق من أثرها شيء.

ب.امّحت معالم الدار ولكن بقاياها ما زالت ظاهرة كبقايا الوشم .

ج. يصوّر تلويحة يده لمحبوبته وهي تبتعد راحلة عن ديارها.

د. يقصد أنّ حبّ خولة باقٍ في قلبه كالوشْم.

(9): إذا قارنّا بين مطالع المعلقات وجدناها متقاربة في طريقة افتتاحها بالبكاء على أطلال المحبوبة أو ذكر رحيلها، ما عدا مطلع معلقة:

أ. امرؤ القيس

ب. عمرو بن كلثوم

ج. عنترة بن شداد

د. زهير بن أبي سلمى

(10): المقصود بالأطلال كما يفهم من الشعر الجاهلي ومطالع المعلّقات:

أ. الديار العامرة أثناء إقامة أهلها فيها

ب. أغنية شعرية تغنيها السيدة أم كلثوم

ج. بقايا الديار الخالية بعد رحيل سكانها

د. الديار البارزة المطلّة المبنية من الحجارة

القضايا اللغوية المثنى والجمع

الأمثلة:

(أ)

1- أعلنَ **الطبيبُ** عن اكتشافه الجديد .

2- حَضَرَ **الفائزُ** حفل التكريم .

3- نَادَيْتُ **الْبَائِعَ**.

4- استمعتُ إلى **الفتاةِ**.

(ب)

1- أعلنَ **الطبيبان** عن اكتشافهما الجديد.

2- حَضَرَ **الفائزانِ** حفلَ التكريم.

3- نَادَيْتُ **الْبَائِعَيْنِ**.

4- استمعتُ إلى **الفتاتيْنِ**.

(ج)

1- أعلنَ الأطباءُ عن اكتشافهم الجديد.

2 - حَضَرَ **الفائزون** حفل التكريم.

3- ناديْت **الْبائِعِينَ**.

4- استمعتُ إلى **الفتياتِ**.